مجلة المجمع العلمي العراقي

الجزء الرابع ـ المجلد الثامن والثلاثون

بغـــــداد

ربيع الثاني ١٤٠٨ هـ ـ كانون الاول ١٩٨٧ م

عَدِيّ بن الرِّقاع العَامِلِيّ

حـــياته وخصائص شعـــره

الدكتور نوري حمودي القيسي
كلية الآداب ــ جامعة بغـــداد

الدكتور حاتم صالح الضامن
كلية الآداب ــ جامعة بغـــداد

عند الحديث عن التراث العربي ، وعند الوقوف على ما قدمته العقلية العربية عبر عصورها الطويلة تتأكد مجموعة من الحقائق ، وتظهر طائفة من الاقوال ، وهي في مجملها اقوال تحتاج الى تأمل ، وتدعو الى التفكر فالتراث العربي برمته قد ضمّ اعمالاً جليلة ، واستوقف مظاهر شاملة وتناول موضوعات اسهمت في بناء المجتمع ، وشاركت في اكتمال شخصية الانسان العربي ، وقد يشمل هذا التراث نواحي الحياة ، ويقف على الاحداث الكبيرة التي تعرضت اليها الامة وهي تبني حياتها ، وتشارك مع الامم الاخرى في استكمال الجوانب الحضارية التي بقيت اصولها مشتركة ، واقدارها موزعة . ولا بد لنا ونحن نعرض لمثل هذا الحديث من ان تقرر بعض الحقائق الثابتة في هذا المجال وقد اصبحت اموراً مفروغاً منها اولها ان هذا التراث الذي اصبح الحديث عنه يشغل المعنيين والبـــاحثين هو تراث متواصل من حيث التوافق ، ومتكامل من حيث البناء ، ومرتبط من حيث الاصول ، وان كلّ اجزائه المتباعدة ، وحلقاته التي فرض عليها ان تكون متراخية في بعض العصور تمثل وحدة متكاملة ، وصورة موحدة . وثانيها ان هذا التراث الذي كان ثمرة من ثمرات العقول ، وحصيلة غنية ، تعاونت على انضاجه عقول مبدعة ، وكتبت فصول زهوه اقلام احكمتها تجربة البحث ، واغنتها ثروة المتابعة الجادة ، فعبر عن فكر الاجيال ، واستقر في اسفار التاريخ مرحلة من مراحل البناء والتقدم

والتواصـــل . وثالثها ، ان هذا التراث مايزال بحاجة الى نشر ودراسة وتحليل، لان معظمه مخطوط او ضائع ، وان مصورات مخطوطاته او اصولها ماتزال محفوظة فوق رفوف المكتبات او في بطون الصناديق او في اروقة الزوايا والتكايا والمساجد والاديرة اما الضائع منها فهو اكداس اخرى هائلة يمكن معرفتها من كتب الفهارس التي ذكرت اسماؤها او نقلت او تحدثت عن اصحابها واشارت الى تآليفهم وهذا يدعونا الى التريث في اطلاق الاحكام وخاصة ما يتعلق منها باعداد المخطوطات او اسماء التآليف . ورابعها ان تراثاً بمثل هذه السعة والشمول والتنوع ، وامة بمثل هذه القدرة على التاليف والاستقصاء لايمكن ان يحكم عليه او عليها بما نشر من مخطوطات او درس من محاولات لتقويم مرحلة او تحديد مسألة علمية او وضع ضوابط او استخلاص نتائج او استخدام احكام . لان كل واحدة من هذه تمثل حكما مقطوعا او قاعدة منقوصة او نتيجة لاتستند الى حجة .

ان هذه القاعدة التي يمكن تطبيقها على كثير من وجوه التراث العربي العلمي والانساني تقف شاخصة عند تقرير اية حقيقة او الذهاب وراء اي مذهب وان اغفالها اوالتستر عليها يبقي التراث خاضعاً لمقولات غير موضوعية واحكام غير حقيقيـة .

واذا حاولنا تضييق دائرة التراث وحصرناها في مجال الشعر لهالنا ماتعرض له هذا الفيض الزاخر من ضياع . وذهلتنا مجاميع الشعر التي طمرتها احداث العصور . فمن مجموع الدواوين التي ذكرها ابن النديم في الفهرست تتضح قائمة الضياع التي تعرضت لها هذه الدواوين . فقد اشار اليه في قائمة الشعراء الذين عمل ابو سعيد السكري اشعارهم (١) . وتظل اعداد هذه الدواوين تكبر كل ماتقدم العصر واتسعت دائرة الشعر فأبن خير الاشبيلي يضيف في

(١) ابن النديم . الفهرست /١٧٨ .

فهرسته اعداداً اخرى من هذه الدواوين التي نقلت الى بلاد الاندلس (٢) وكانت مروية في عصره ويذكر ضمن هذه القوائم التي حملها الى الاندلس ديوان عدي بن الرقاع (٣) وفي مقدمة منتهى الطلب من اشعار العرب لمحمد بن المبارك اشارة واضحة الى دواوين الشعراء الذين وقف على مجموع أشعارهم التي رآها واخذ عنها ولكن اعداداً كبيرة منها فقدت . اما قائمة العيني المتوفي سنة (٨٥٥) للهجرة التي اعتمدها في كتابه المقاصد النحوية في شرح شواهد الالفية والمشهور بشرح الشواهد الكبرى فقد جمع من كتب الدواوين للشعراء المتقدمين الذين احتج بهم نحاة الاولين والاخرين على ما ينيف على مائة ومن يدقق هذه القائمة يعرف الاعداد التي لم تصل الينا من هذه الدواوين . وظل بعض هذه الدواوين متداولة حتى عصر صاحب الخزانة المتوفى في حدود (١٠٩٣) التي اعتمدها ورجع اليها وانتقى منها مادة كتابه ويشير الى ديوان عدي بن الرقاع ضمن دواوين الشعراء الاسلاميين كما يسميهم(٤)، وعند مراجعة هذه الدواوين والوقوف على مابقي منها او نشر نجد الفرق كبيراً وان دواوين كثيرة منها لم يهتد اليها ولم تكن ، ضمن الدواوين المخطوطة والموجودة في مكتبات العالم ..

---

(٢) لما دخل القالي الى الاندلس كان يحمل معه حصيلة ربع قرن من الانكباب والسهر والصبر . قضاه في بغداد وحدها ، فلم يبق احد ممن تحدوه الرغبة في العلم الاوحضر مجالسه حين انتصب للتدريس والاملاء ، بل ان كثيرا ممن كانت لهم شهرة سابقة في اللغة والادب قبل حضوره قد تنازل وتواضع له . واقر بمشيخته وامامته وحتى الذين لم يتتلمذوا له ولم يحضروا بعض مجالسه او يأخذوا شيئا من كتبه فقد اصابهم نصيب من هذه الخزانة الكبيرة الثمينة التي حملتها رواحله من بغداد الى قرطبة (ابو علي القالي واثره في الدراسات اللغوية عبد العلي الودغيري/٤٣٦) .

(٣) ابن خير . الفهرست/٣٩٩ .

(٤) البغدادي . خزانة الادب ١/١٠ .

ان هذه الصورة المحدودة والضيقة تكشف عن الحالة التي يمكن ان تقال بالنسبة لبقية العلوم التي ماتزال مخطوطاتها قابعة في زوايا النسيان او مطمورة في جدر البيوت او المساجد وهو ما يدعو كل المعنيين بشؤون التراث الى التشمير عن ساعد الجد والانصراف الى تكوين فرق العمل ومجاميع البحث لتقييد المخطوطات وتصنيفها وتنسيقها وبيان ما نشر منها وترتيبها بحسب اهميتها للنشر وتهيئة الباحثين الذين يقومون على تحليل موادها ودراسة الظواهر الجديدة فيها والمعرفة التي تتضمنها لتدخل في باب الفهرسة التحليلية وتوضع في الاماكن التي يمكن ان تنتفع بها ..

واليوم وبعد اكثر من ثلاثة قرون على ذكر ديوان عدي بن الرقاع العاملي الذي اعتمده صاحب الخزانة نقف على ديوان هذا الشاعر الذي جعله ابن سلام في الطبقة السابعة(٥).ويبدو ان صاحب الاغاني قد وهم عندما قال بأن الجمحي وضعه في الطبقة الثالثة (٦) .

والنسخة التي وقفنـــا عليها سقط منها ثلاث ورقات من وسطها وآخرها . واوصاف هذه النسخة مطابقة لاوصاف النسخة التي يحتفظ بها الدكتور حسين علي محفوظ والتي اشار اليها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق حيث قال : (ومما كنت اصبته من تلكم الاعلاق المذخورة نسخة عتيقة جدا — هي الوحيدة — من ديوان شعر عدي بن الرقاع العاملي ، رواية ثعلب اللغوي الكبير المشهور . محفوظة بخزانة التاجر الفاضل محمد امين الخنجي البحراني نزيل طهران الذي لم يضن بها عليّ .

قوام هذه النسخة ١٠٣ اوراق من النوع القديم . طول كل ورقة ٢٣,٤ سم في عرض ١٦,٥ . وطول الكتابة ١٧,٩ سم في عرض ١١ من الشعر — و٨.٥ من الشرح . وفي كل صفحة ١٥ سطرا بالخط النسخي القديم .

(٥) ابن سلام . طبقات فحول الشعراء ٢/٦٩٩ .
(٦) ابو الفرج . الاغاني ٩/٣٠٠ (دار الثقافة) .

والنسخة مخرومة بتراء سقط مقدار من آخرها ولا يوجد بها الورقة ٢٠ ولا الورقة ١٠٢ ، ولا الورقة ١٠٥ وفيها اختلال في الترتيب .

والظن انها مكتوبة في الشطر الاول من القرن الخامس الهجري . وقد ملك هذه النسخة جماعة قيدوا عليها اسماءهم في سنة ٩٧٤ – ١١٨٧ هـ وكانت قبل ذلك من كتب دواوين بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول ، وهو اخو السلطان الملك الاشرف عمر . مؤلف كتاب (طرفة الاصحاب) المتوفي سنة ٦٩٦ (ظ) وعليها خطوط قديمة جدا تكاد تخفى .

مجموع اشعار ابن الرقاع في هذه الاثارة الباقية من اوراق الديوان ١٠٩٣ بيتا في ٢٩ قصيدة .

واكثر هذه القصائد في مدح الوليد بن عبدالملك بن مروان ، وعمر بن الوليد . وفي الديوان قصيدتان مدح بهما عمر بن عبدالعزيز ، واثنتان – ايضا – قالهما في الاسوار عبدالله بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان ، وواحدة في مرى بن ربيعة بن مسعود بن كعب بن عاصم بن جناب الكلبي ، وابيات في نقض كلمة عبيد بن الحصين الراعي .

اما الشرح فقد سلك فيه ثعلب نهجه اللغوي المعروف الا انه اكثر من الشواهد وعني بالالفاظ . واهتم بالتعابير المستعملة . والجمل والمجازات وهو – عندي – من خيار آثاره الادبية (٧) .

وقد بلغ عدد الأبيات في نسختنا ألفاً وعشرة أبيات ويجرنا هـذا الى الشك في أنّ هـذه النسخة تخالف النسخة التي وصفها الدكتور حسين محفوظ ، أو أنه سها في تعداد الأبيات اِذ جاء في الشرح عدد من الأبيات للراعي النميري في هجاء عدي بن الرقاع ، ولشعراء آخرين والله تعالى أعلم .

(٧) مجلة المجمع العلمي بدمشق م ٣٣ سنة ١٩٥٨ .

وعدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع العاملي من عاملة ، حي من قضاعة ، ينسب الى الرقاع في موضع والى عاملة في موضع آخر (٨) وكنيته ابو داود وكان من العرجان حيث نزل عن مطيته في الليل ومشى بعد أن اعيا من الركوب فوقعت رجله في جحر من جحرة اليرابيع فانكسرت وبقى اعرج مدة حياته ولم نجد له ذكراً في عرجان الجاحظ وعدّه الجاحظ في البرصان ـ ٤٣٣ من الأدران جمع ادر وهو العظيم الخصية من داء او فتق، كانت له بنت تقول الشعر فأتاه ناس من الشعراء ليماتنوه وكان غائبا ، فسمعت بنته وهي صغيرة لم تبلغ دور وعيدهم فخرجت اليهم وانشأت تقول :

تجمعتهم من كـــل اوب وبلدة على واحـــدلازلتم قرن واحد

فأفحمتهم (٩) وكان شاعرا مقدما عند بني امية ، مداحا لهم ، خاصا بالوليد بن عبدالملك (١٠) وقال فيه قصائد طويلة .

وكان أبو عبيدة يستحسن بيت عدي .

وسنان اقصده النعاس فرنقـــت في عينه سنة وليس بنائم

ويقول : ما قال احد في مثل هذا المعنى احسن منه في هذا الشعر (١١) ، وقال ابو عمرو وهو يسمع بعض ابياته احسن والله عدي بن الرقاع (١٢) .

وقال عنه أبو الفرج :

ينفرد عدي بن الرقاع بوصف المطيّة ويُقدم فيه (١٢أ) .

---

(٨) تنظر ترجمته في طبقات ابن سلام ، ٦٨١/٢ والشعر والشعراء ٦١٨/٢ والاغاني ٣٠٠/٩ وما بعدها والمؤتلف والمختلف /١٦٦ ومعجم الشعراء/ ٨٦ ـ ٨٧ .

(٩) ينظر الاغاني ٩/.. ، ٣٠٣ ـ ٣٠٤ ومختصرها في الشعر والشعراء/ ٦١٨ وكامل المبرد/٢٢٦ (٣) ابو الفرج الاغاني/٤/٣٠٠ .

(١٠) افرغ الشاعر مديحه للوليد بن عبد الملك وعمر بن الوليد بن عبد الملك وعبد الله بن ابي معاوية .

(١١) ابو الفرج ، الاغاني ٣٠٥/٩ .

(١٢) ابو الفرج الاغاني ٣٠٦/٩ .

(١٢أ) ابو الفرج الاغاني ٣٠٤/٩ .

وبقيت ابياته في قصيدته الميمية من الابيات المشهورة التي نالت استحسان القدامى لرقتها وعذوبة الفاظها ودقة وصفها ، وبقيت قائمة المعجبين تزداد وكل معجب منهم يظهر لونا ويكشف عن زاوية ، ويحدد جانبا جماليا فعندما سؤل جرير من انسب الشعراء قال : ابن الرقاع وذكر قوله : لولا الحياء .....

ثم قال : ما كان يبالي ان لم يقل بعدها شيئاً (١٣) وقال ابن قتيبة وكان شاعرا محسنا وهو احسن من وصف ظبية (١٤) وتعرض لجرير وناقضه في مجلس الوليد بن عبدالملك ثم لم تتم بينهما مهاجاة الا ان جريرا هجاه تعريضا في قصيدته ويمكن ان يضمّ عدي بن الرقاع الى قائمة الشعراء الذي عرفوا بتنقيح قصائدهم واختيار الفاظهم وفي ديوانه اشارة الى أن احدى قصائده في مدح عمر بن عبدالعزيز خيرّها سنة وكان الاصمعي يقول لاصحابه الا انشدكم حولية عدي :

حي الهداملة من ذات المواعيس

ولم يصرح لان الوليد حلف ان هو هجاه اسرجه والجمه وحمله على ظهره فلم يصرح بهجائه (١٥) .

ولعل السبب في هذا يعود لحظوته عند الوليد ، ودفاعه عن الخلافة وايمانه بالوفاء للدولة العربية التي وضع نفسه في خدمة اهدافها والوقوف بحزم تجاه كل الحركات التي حاولت ان تقف بوجهها او تستعدى عليها عناصر الشغب والفتنة وقد دفعه هذا الوفاء والالتزام الى اقتصار شعره على قادة الدولة وخلفائها وحمده لهم لما قدموه من جليل الاعمال وعظيم الماثر .

وفي عدي بن الرقاع اصالة تنم عنها اعماله ، ويؤكدها التزامه ووفاؤه، وتحققها تقاليده التي اصبحت جزء من حياته ، فصداقته للناس ورفقته لمن يحسن اليه تظل في عرفه موضع تكريم ، وتبقى في حسابه مجال اعتبار وتذكر.

(١٣) نفس المصدر ٣٠٧/٩ .
(١٤) ابن قتيبة . الشعر والشعراء /٦١٨ .
(١٥) ابو الفرج . الاغاني ٣٠٠/٩ .

وفي حديث عبيدة بن عبدالرحمن الذي عزله الوليد بن عبدالملك عن الاردن بعد ان ضربه وحلقه واقامه للناس ما يؤكد اخلاق هذا الشاعر الملتزم ، ووفاءه لمن قدم له جميلا ، واحسن صنيعا ، فقد طلب الوليد من الذي اوكل اليهم مراقبته ان يأتوه بمن يأتيه متوجعا او يثني عليه . ولكن هذا التخويف والانذار لم يمنع الشاعر عن التعبير ، ولم يثنه عن اظهار مشاعره فقد حضر اليه ووقف عليه وانشأ يقول :

فمـــا عزاؤك مســبوقـــا ولكـــن
الى الخيـــرات سبّاقـــا جـــوادا
وكنت اخـــي وما ولدتك امـــي
وصـــولا باذلاً لي مســـــترادا
وقـــد هيضت لنكبتـــك القـــدامى
كـــذاك اللـــــــه يفعل ما ارادا

وعندما وثب الموكلون به . وحملوه الى الوليد وادخلوه عليه ، واخبروه بما قال تغيّظ الوليد وقال له : اتمدح رجلا قـــد فعلت به ما فعلت ؟ فقال : يا امير المؤمنين . انه كان اليّ محسنا . ولي مؤثرا ، وبي برا ، ففي اي وقت كنت اكافئه بعد هذا اليوم ؟ وهنا يستجيب الخليفة لهذا الوفاء ، وتعلو في نفسه كرامة الانسان الذي لا تمنعه صروف الزمان عن تناسي الاخوان ، ولا تحول بينه وبين من احسنوا اليه عاديات الدهر . فيثني عليه ويعفو عنه وعن عبيده وينصرفان وهما يشعران بالوفاء لقيم الرجولة ، والاحسان لكرامة الصنيع (١٦) .

وشأن عدي في تحديد سنة ولادته شأن بقية الشعراء الذين لا تعرف اوليات حياتهم او مواليدهم ، لان مواليدهم وقعت في زمن لم تتضح فيه هويتهم ، ولم تعرف منزلتهم ، ولكن اخباره وقصائده وشهرته تظهر وهو في صحبة

(١٦) ابو الفرج . الاغاني ٣٠٦/٩ ــ ٣٠٧ .

البلاط ـ ويستطرد صاحب الاغاني ليقول : وكان منزله بدمشق (١٧) . وتظل دمشق الكبيرة هي منزل الشاعر ، وتظل هذه المدينة العربية هي الارض التي تحرك فوقها فتعرف نشأته ، وترى فتوته وشبابه ، وتشهد ينابيع ثقافته التي وثقت في نفسه حب الدولة والنضال دون رايتها والوقوف بحزم تجاه الحركات التي حاولت التصدي لها ، وعدي كما يقول صاحب الاغاني : وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم (١٨) ، ففي شعره طراوة الحضارة ، وفي الفاظه رقة التحضر وفي تعابيره عبق الصور الزاهية وهي تطرز ببصمات الفن الحضاري وعلاقات الناس وهي تشرق بقسماتها في انماط السلوك الاجتماعي.

ان نشأة الشاعر في هذا الوسط الحضري وفي عاصمة الدولة العربية قد حقق له الاحساس بكيان الدولة وهي تبني حضارتها وترسخ مواعيد بنائها وتقاليدها ، فأمتزج هواه بهوى الدولة ، وارتبط وجوده بوجود خلفائها . يمدح احياءهم ، ويمجد اعمالهم ، ويرثي امواتهم ، ويرى رأيهم ، ويقول بقولهم ، يدافع عن مبادىء الدولة ويؤيد سياستها ، ويتحمس لها ، وظف شعره لنصرتها ، وشهر سيفه بوجه خصومها ، سالم من سالمها وعادي من عاداها وهو في رأيه هذا لا يصدر عن رهبة ، ولاينافق عن خوف وانما يعبر عن الحقيقة كما يراها ، والعقيدة كما يؤمن بها ، والوفاء كما فرضته عليه اخلاقه . لانه يعتقد بأن نصر الدولة هو من نصر الله الذي لم يغلب ... واوشك ان يختص بمدح الوليد الذي وجد في عصره كل ما يدعو الى الاعجاب والفخر فالوليد كما يقول الطبري صاحب بناء واتخاذ للمصانع والضياع (١٩) . واعطى المجذمين وقال لهم : لا تسألوا الناس ، واعطى كل مقعد خادما وكل ضرير قائدا وفتح في ولايته فتوح عظام ، فتح موسى بن نصير الاندلس وفتح قتيبة كاشغر ، وفتح محمد بن القاسم الهند (٢٠) .

(١٧) الاغاني . ابو الفرج ٩/٣٠٠ .
(١٨) الاغاني . ابو الفرج ٩/.. .
(١٩) تاريخ الطبرى . الطبرى ٦/٤٩٧ .
(٢٠) تاريخ الطبرى . الطبرى ٦/٤٩٦ .

وهو الذي تابع الناس في تعلم القرآن ، وكان يعاقب الذين لا يعرفون قراءته ، ويفرض عليهم العقاب حتى يقرأوه ، ويكافيء الاخرين ويقضي ديون (٢١) ممن عرفوا القراءة وهو بعد هذا اول معرّب الدواوين .

عاصر عدي عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك وسليمان بن عبدالملك وعمر بن عبدالعزيز وقد امتدت خلافة هؤلاء حتى سنة ١٠١ للهجرة وهي نهاية خلافة عمر بن عبدالعزيز وله مدائح في عمر بن الوليد ولكننا لا نستطيع تحديد المراحل التي مدحه بها ، لان عمر بن الوليد كان حيا سنة (١٢٦) وهو تاريخ متأخر . وان الشاعر قد مات قبل هذا التاريخ . ولابد ان تكون حظوته عند خلفاء بني امية ووفاؤه الاصيل لهم ، وتفانيه في الدفاع عنهم ، والسير وراءهم قد جرت عليه خصومه الحساد ، وغيظ اللاهثين خلف المديح الكاذب ، والحب المصطنع ، فاستثيرت حوله الشكوك وعرض به في اكثر من مجلس . وقيل بشأنه وبشعره ما قيل ، وقد تجرع من غصصها ما اثقل عليه لذة الحياة ، ونغص طعم اللذة ، ولكن الايمان بالنهج السليم الذي يرتضيه الانسان ، والوفاء للحقيقة التي تظل اصداؤها حية في نفسه تفسد على الحاسدين مطامعهم ، وتقتل في قلوبهم نزوة التطلع غير المشروع وبقي الشاعر عدي بن الرقاع يحمل هذا الوفاء للرجال الذين وجد فيهم اصالة الانتماء ، ووفاء العروبة ، وشرف الدفاع عن وجودها والحفاظ على شخصيتها العربية الخالصة . ولم تكن ظاهرة ضياع شعره غريبة بعد ان عرف بحبه لدولة العرب ، ووقوفه الى جانبها . واشادته برجالها ومدحه لقادتها وخلفائها ، وقد ترك هذا اثره في نفوس الذين زرعوا الحقد في قلوب الاخرين نكاية بها ، واضعافا لدورها الحضاري ، ومحاولة لاسقاط مرحلتها التاريخية المهمة ، وقد تعرضت الدولة في زمانه الى احداث كبيرة ، هزت وجدان الشاعر .

---

(٢١) تاريخ الطبري . الطبري ٤٩٦/٦ .

خصائص شعره :

ان ازدهار الشعر في العصر الاموى كان من الظواهر التي عرفها النقاد وحكموا بموجبها على الشعراء لما عرفوه في ادب هذه الفترة من رقة ، ولمسوه من جمال فني رائع ، فهو عصر الرقة والغزل وعصر الاناقة وتثقيف الشعر وتهذيب القوافي وصقل القصائد ، وقد لمعت فيه من الاسماء من رق شعرهم وعذبت الفاظهم ، وانسابت روائعهم على السن الناس والرواة اناشيد عذبة واغان حضارية رقيقة وعدي بن الرقاع من اولئك الشعراء الذين حسنت ديباجتهم ، وصفت الفاظهم ورقت معانيهم ، وعبر عدي عن اهتمامه بتهذيب قوافيه وتثقيف شعره وتقويم عيوبها واصلاح سنادها وميلها ، وحديثه في هذا الجانب حديث الشاعر الحاذق الذي يحسن الصنعة ، ويجيد الحرفة ويمتلك زمام التثقيف البارع حيث يقول :

وقصيدة قد بت اجمع بينها
حتى اقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته
حتى يقيم ثقافه منادها

ولم يكن هذا التثقيف غريبا على شاعر الدولة الذي عاصر خلفاءها وتأثر بطراز حضارتها وأنق الحياة التي اصبحت سمة من سمات العصر وقد استطاعت الدولة ان ترسخ قواعدها وتضع ركائز الوجه التنظيمي والحضاري لكثير من اوجه تعاملها ، واساليب منهجها وعلاقاتها مع الدول . وربما كان هذا التثقيف سبباً من اسباب الاستشهاد الكثير ببعض ابياته التي اصبحت مضربا للمثل ، ومدعاة للاستشهاد في مواضع مختلفة فابياته التي يصف فيها العين والنظر والتي يقول فيها :

لولا الحياء وان راسي قد عسا
فيه المشيب لزرت ام القاسم
فكأنها بين النساء اعارها
عينيه احور من جاذر جاسم
وسنان اقصده النعاس فرنقت
في عينه سنة وليس بنائم

استشهد بها المفسرون واصحاب المعاجم والبلاغيون وأصحاب كتب الادب والامالي ومجاميع الشعر حتى تجاوزت اعدادهم الثلاثين . اما البلدانيون فقد وجدوا فيها جانبا من جوانب توثيق المواضع كما صنع البكري وياقوت ، وكان كل واحد منهم يعقب عليها بما يظهر اعجابه ويكشف عن الجانب الجمالي الذي برع في صياغته الشاعر ، ومما يروى عن الاصمعي انه قال واحسن بيت قيل في فترة الجفون بيت ابن الرقاع وذكر البيتين (٢٢) ، وكان ابو عبيدة يستحسن البيت الثالث ويقول : ما احد قال في مثل هذا المعنى احسن منه في هذا الشعر (٢٣) ، وعقب عليها الخالديان فقالا : ولعمري ان بيتي ابن الرقاع هذين في نهاية الحسن (٢٤) وقال الثعالبي في الايجاز والاعجاز ولايعرف مثل قوله في وصف المرأة (٢٥) وتتكرر ظاهرة كثرة الاستشهاد في ابيات اخرى لعدي ، فابياته التي وصف فيها الظبية والغزال كانت موضع اعتزاز البلاغيين واصحاب كتب الادب والامالي (٢٦) . .

---

(٢٢) الخالديان . الاشباه والنظائر ١٦٥/١ .
(٢٣) ابو الفرج . الاغاني ٣١١/٩ .
وينظر مصادر تخريج القصيدة .
(٢٤) الخالديان . الاشباه والنظائر ١٦٥/١ .
(٢٥) الثعالبي . الايجاز والاعجاز/٤٤ .
(٢٦) تنظر مصادر تخريج القصيدة الدالية .

وتبقى ابياته :

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة
اليها شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا
بكاها فقلت : الفضل للمتقدم

من الابيات التي قيلت بشأنها اقوال كثيرة ، وعرضت لها الكتب الادبية واستشهدت بها في مواضع متعددة وهي تشيد بقائلها وتعجب من قدرته البلاغية . .

وكذلك ابياته التي وصف فيها حمارا واتانه . .

يتعاوران من الغبار ملاءة
بيضاء محكمة هما نسجاها
تطوى اذا وردا مكانا جاسيا
واذا السنابك اسهلت نشراها

حيث عقب عليها صاحب الخزانة (٢٧) بقوله : وهذا احسن ما قيل في وصف الغبار والعجاج ان اجماع المصادر البلاغية والادبية على الاشادة بالصور التي قدمها الشاعر وبرع في تقديم الاوصاف التي اخذت حجمها في مواضع الاستشهاد الفني تعطي الشاعر المكانة المتميزة ، في اعداد الشعراء الذين توزعت ابياتهم في كتب البلاغة والصناعة والمعاني

ومن ظواهر الاستشهاد الغريب ان ياقوتا الحموي قد استشهد له في اكثر من مائة وعشرة ابيات وهو عدد غير قليل بالنسبة لما يستشهد به ياقوت لشعراء اخرين .

(٢٧) البغدادى . خزانة الادب ٢٧٧/٣ .

ان كثرة الاستشهاد عند ياقوت تؤكد عدد المواضع الكثيرة التي وقف عندها الشاعر وتحدث عنها واستثارت في نفسه الخواطر والهواجس ، وتؤكد شدة ارتباطه بارضه وعمق انتمائه لها . وهي بالتالي توثق صحة المواضع التي تحدث عنها حتي كانت شواهد معتمدة لياقوت .

اما اصحاب المعاجم فقد كانت شواهد عدى من النماذج المعتمدة عندهم فقد استشهد له صاحب اللسان في اكثر من مائة موضع واعتمد بعضها صاحب التاج . ولكن الجديد في الاستشهاد هو ان صاحب التاج قد استشهد له باكثر من ثلاثين مرة في مواضع لم يستشهد له فيها صاحب اللسان ، وهي ظاهرة تؤكد اعتماد اللغويين على شعره ووقوفهم على ديوانه ويمكن الوقوف على هذه المواضع في تخريج شعر الشاعر . . .

والشاعر كما تؤكد كثير من ابياته . ومفرداته كان شاعرا حضريا ، يتسلسل ظل النعيم في ابياته . وينساب رونق الحضارة في شعره ، وتتناثر مفردات الحياة الاجتماعية في صوره وهو يستعيد التشبيهات التي املتها عليه طبيعة الحياة . ولونتها رفاهية الواقع الجديد الذي عاشه الانسان العربي في ظل التقاليد الحضرية . ولابد ان يكون هذا الاتجاه قد حمله مهمة الاحسان في مخاطبة الخلفاء . واجادته في اختيار الالفاظ المقبولة والمناسبة ، وانتقائه جمالية الصور المناسبة . والتعبير عن الوجهة السياسية التي كانت تأخذ طريقها في بناء الدولة العربية ، والالتزام بالمبادىء الانسانية التي اصبحت واجهة من واجهات الدولة في التعريب والتحرير والتعامل وما يمكن ان يقدمه الخليفة او يضطلع به من جلائل الاعمال وعظائم المسؤوليات .

يسلك عدي بن الرقاع مسلك القدامى في بنائه الشعري فالدار كعنوان الكتاب وقد عيت بالجواب ، لايهتدى الى موضع الانضاد الا لايا ، والسيل قد صد مجرى التلعة . ضربته مملوكة بغراب الفأس وهي بدايات تثير فينا الاحساس بالصورة التي افتتح بها النابغة مطولته وتوشك ان تكون المفردات المستعملة

في الصورتين واحدة وفي الفاظ (عيت جوابا) و(لأيا) و (النضد) و(الوليدة) و (ضربها) هي الالفاظ الواردة في مطلع قصيدة عدي . حتى اذا اوشك ان يغادر المقدمة ليتخلص من هموم الوقوف ، ويترك انسكاب العبرات ومتاعب الاعياء وسكون الدار انصرف الى عبارة (ذر اللهو لمن يلهو بها) وهي تقابل عبارة النابغة (فعد عما ترى اذ لا ارتجاع له) واذا كانت ناقة النابغة عظيمة الفقار ، مقتدرة على حمل راكبها مدة طويلة فشد عليها اعواد رحله فأن شاعرنا يكسو اقتاده بعيرا اسود نشيطا وهي محاولة اخرى من محاولات الاقتداء التي التزم بها وهو يواصل بناء قصيدته ويستمر في هذا النمط الشعري باضفاء صفات القوة فهي (بازل) غليظة شديدة من حيث القوة والحدة لايحمل من رحله غير اقتاد وقطع وقراب وتعاظم عباراته ، وهو يغور في اعماق الوادي ليتحدث عن الفلاة والآل والسراب ، وتغلظ صوره وهي تشرف على الصوى لتستدل بها على الاعلام ومسايل الوديان او تعتسفها على غير بيان وهدى وتثبت ، حتى اذا اوردهن واتبع آثارهن اتان مجدول . . . وتنقطع الصورة ولم نجد للقصيدة تتمة . . وهذا يدل على ان الصورة لم تنته (٢٨) .

وتبقى مطالع قصائده صورة تقليدية لما الفناه عند الشعراء القدامى فالدار مثل خط الكتاب وقد انتصبت في المواضع المحددة بعد ان جرت الريح فوقها ترابا سريعا وتصاحب هذا الحديث احاديث الجيرة الذين احسنوا ضيافتهم واكرموا وفادتهم وتقاربت اعمدة بيوتهم وكان الدخان ينسلي من وراء الحجاب قدما . وهم يوقدون النيران في بيوتهم من شدة البرد . ويقترن هذا الحديث برد (رويمة) بعد بعد وصدود واجتناب وقد ذهبت بقلبه وقد تطل عليه بوجه ناصع اللون ، صورتها مجلوة بماء الذهب ، او هي مهاة انكشف الليل عنها عند انسفار الصبح بين موضعين ، لورآها الناشي ، المسبغ ازاره ، المختال بحسنه وفتوته لج في

(٢٨) تنظر القصيدة الاولى .

تصابيه ، وهنا يقف عند الفتيان الذين نزلوا في الليل بالارض القفر بين غرير لم يجرب امره ، او استبد به النعاس فانكب على وجهه كمصاب ، او هجدا فترت عيونهم فكانوا كالثمالى وما هم بثمالى وما انتشوا من شراب افزعتهم دعوة رجل شديد بعد رقدة رقدوها انتشر الشيب في مضر الغسل فكانت دعوتهم لهم دعوة نفذت الى ام رؤوسهم فتحركوا واسرعوا نشيطين فانقضوا ظاهر الحصا برحال مثبتات على ظهور الركاب واسرعن جزعا عاطفات اعناقهن ؛ ماثلات في احد الشقين . يعدون عدوا شديدا وقد امتطاهن الرجال وقد لبسوا الدروع في جيش كبير تعلوه راية وتمنعه شدة وتحت الراية قناة تكون واحدا وعشرين كعبا ، كما حملوا السيوف واكتسوا بالسرابيل تهيئا للضراب ، ولا ينسى الشاعر في غمرة هذا الحديث ان يضفي كل هذه الصفات على قبيلته التي ينتسب اليها من بني قاسط وابناء زهير ويتذكر حليلته التي احزنها تقلبه واغترابه وتتسرب من ثنايا حديثه بعض اللمحات الخفيفة التي توحي بالعتاب وتدل على النأى والصدود وما يمكن ان تثيره مثل هذه الخفقات في خفايا الشاعر وهو يتذكر ويحن ويقترن حنينه بالنياق الشداد التي اخذت مساحتها في المربع المتناهي وقد رعاها غلام اسود كالغراب وقد وجد في ملاعبه الفحل وقد الفه وتنقل الى اوصاف الناقة العظيمة الضخمة البدنة الغليظة وقد بركت في ديار العزيز من ارض كلب بين احياء عامر وجناب (٢٩) .

وتأخذ قصائد المديح نمطها التقليدي حيث يكون النزوح والنأي والبعاد بعد المودة والتدلل والوصال وقد جاء بعد تقدمه بالسن والحبيبة في مطالعه (اسيلة الخدين) (بيضاء) (خود) تثني في مشيها وتميس في حركتها كما يسير الماء على الكثيب غير المتماسك ، ومن الطبيعي ان يتسلل الفخر الى قلب الشاعر ليبعد عن نفسه وقوعه في حبها او تهالكه عليها ، واذا أحبها فهو عفيف طاهر الثوب ؛ نقي السريرة ، واسع المعروف . . وبعد ان تستثار هذه النوازع ويتحقق الجو المؤلم وتنسكب العبرات ، ويعلو الشوق - هنا ينتقل الشاعر —

(٢٩) تنظر القصيدة الثانية .

انتقال الشعراء القدامى ، بجسر لفظي يقطع بواسطته دروب الحزن الى دروب الصحراء المقفرة ، ويعبر من خلاله الى الفضاء الرحب بحمل شديد قوي اذا هز عنقه ورأسه اضطرب النعام الساكن وهاجت سرابه نشيط بعض مؤخره افخاذ القطيع ، حتى اذا رمت الهواجر واخضرت الارض بعد اليبس وتبدلت الالوان وانجلت عنهن اسمال الشتاء وشربن كل بقية صادفنها من المطر . . . وهي الصورة التي عودنا الشعراء الجاهليون عليها يقدمها الشاعر بانتصاب هذه التماثيل الجميلة التي يبذل في تزويقها جهده ، ويسوى صورتها لتبدو رائعة متمكنة ، ويحرص على الايفاء برسم اجزائها ويدقق في استكمال منظرها الفريد الذي استهوى الشعراء فقالوا فيها اروع قصائدهم وتحدثوا عنها حديث العشاق المتيمين . . وتقترن بصورة هذا الثور الذي شبهت به الناقة حديث المياه الآجنة التي استقرت في المواضع المجهولة ، وانعزلت في الأماكن التي لم يطرقها انسان او يصل اليها حيوان من قبل ويحرص الشاعر — وفاء بما التزم به الشعراء القدامى -- ان يكون الورود بعد اختلاط الظلام . . .

حتى اذا اختلط الظلام وردنه

ولقد بكين بهيبة وتجفل

ويدخل الشاعر بين صورة الثور التي وقف عندها وقفة عابرة وبين صورة الفرس وهو يمد العنان من طول عنقه واعتماره في اللجام ولم يكتف بالانتقال الى صورة الفرس وانما يدقق في صورتها ويصف اجزاءها ويتحدث عن اعضائها بتسعة ابيات وهذا التداخل في القصيدة والانتقال من مرحلة وصف الناقة الى الفرس يمثل الحالة الجديدة في البناء التقليدي للقصيدة العربية بعد ان اصبحت تأخذ شكلا متناسقا من حيث التدرج وموحدا من حيث المتابعة ومنهجيا من حيث استخدام الحيوانات المتعارف عليها في مثل هذه اللوحات .

وفي الابيات التي يعقب فيها على وصف الفرس اثارة جديدة لانه يباشر الحديث عن رسوم المنزل ثانية بعد ان انصرف الى حشر اللوحات الكثيرة في اطار الحديث عن الممدوح ولكن يبدو ان تعلق الشاعر بالمقدمة وتمسكه بالديار حمله على العودة الى ان يستذكر رسوم المنزل ثانية وقد عفيت حججا وتتكرر الصـــور التي تعودنا على قراءتهـــا في استواء الارض ولعب الرياح والدعاء بالسقيا والعروج على اهل الدار التي كانوا زينة فأستبدلوا بها قفرا وبقيت اخاديد وحصى صغارا ورماد نار . هذه المقدمة الطويلة التي استغرقت هذا الوصف تنتهي الى الممدوح الذي ترك الفواحش وترعرع يافعا ونما الى حسب رفيع من منصب العرب الذي ما فوقه للناس من شرف .

وفي هذا التأكيد تتضح اصالة الشاعر وحسّه القومي الذي وجد في هذا البيت العربي وجاهة الاصالة وبيت الندا والسخاء وكل الصفات التي تلحق بالممدوحين الذين تعرفهم من سماتهم وتهتدى اليهم من سؤددهم وتتبين انسانيتهم من نسبهم العريق ابا وجدا وفعلا بعد ان قام بالحق فجزى افضل الجزاء ، ونال احسن الثواب (٣٠) .

ويبدو ان شاعرنا يواكب الواجهة التقليدية التي وجد فيها مداخل جيدة ، ويساير النمط المحكم في بناء القصيدة الذي يمنحه المرونة الشعرية لمواجهة الموقف المطلوب ويعطيه حقوق المشاركة الوجدانية والذاتية لما يسعى اليه من استذكار طلل وهياج احزان ومصائب دهر وربما كانت حالته وهو يواجه هذا الموقف قد فرض عليه الاختزال العاطفي او الانتقال السريع الذي لم يجد فيه من ادوات المباشرة ما يحمله على الاستمرار في معايشة عالم تبدو غرائبه كثيرة واولياته غير منسجمة الى حد ما ، واذا كانت ادوات الشاعر او وسائله المتنوعة التي اكتملت من حيث البناء او توافقت من حيث الشكل قد

(٣٠) تنظر القصيدة الثالثة .

مهدت له الخوض في غمار بعض المحاولات ، واستطاع ان يقف فيها الموقف المناسب الى حد ما فأن حالة الجذب او الانقطاع التي كانت تشد اسباب التواصل اقوى من تأجج المشاعر التي تتفاعل في اعماقه ذاتا واستذكارا . وربما تكون هذه الصورة هي الحقيقة الماثلة في حالة التضاد احيانا عند شاعر توفرت له اسباب الحضارة وتذوق صنوف الترف واستمع الى الرقيق من الشعر ولكنه يمتد في شعره الى عصر متقدم وينهج نهج نماذج بعيدة في كثير من حالاتها عن طبيعة العصر وقد ولد هذا الجو النفسي في داخله اسباب المواجهة لاكثر من تيار ، وحالات الانشداد لطرفين غير مؤتلفين ، اعتمل في نفسه طرف فأنساق لمجاراته ، وغلب عليه الطرف الثاني فغلب عليه ، وهو في الحالتين مجيد محكم ، وفي التعبيرين موفق بارع . . . واذا كانت المقدمة القصيرة التي حاول ان يقدم بها لقصيدة المديح هذه قد انتهت الى بيتين جمع فيهما من الصور والتراكيب ما اغناه عن بقية التفاصيل فأن انتقاله الى الحديث عن الانسان والقوة وطول الزمان والسلاح الذي يفك تلك القوة كانت احاديث الشاعر تدخل في اطار الفلسفة الواضحة التي ظل الانسان المحور الاساس في تحقيقها ولعل اهتزازات الطلل وارتعاشات الصورة الكامنة في بقاياه المندثرة ارتبطت في ذهنه بصورة الضعف الذي يعتريه وهو يتراجع امام ابسط العوامل ويتردد عند اقل الاسباب تأثيرا انها الواجهة الكبيرة التي وقف عندها الشعراء وهم يستثيرون في دواخلهم اسباب المخاطبة ويهيئون الاجواء التي توحي لهم بعوامل الوقوف والحيرة والذهول وهو محور اخر من محـــاور الانتقـال المتحرك في الامتداد الزمني ويطوي اسفار الحياة ويبقى المستقبل المجهول الذي يحاوله الانسان غيبا وسرا غامضا لا يقوى على معرفته ولا يهتدى الى عناصره . وتظل المنيّة تلاحق الانسان وهو غير قادر على الاحتراز مما قدر عليه وهنا لم يجد الشاعر غير صورة الاعصم (الرمز التقليدي) لمجابهة الموت والصراع الابدي الذي لازم بعض القصائد . تعبيرا عن الفكرة المرادة ،

وايحاء بالقدرة الخلاقة التي يريد الشاعر ان يضيفها على ممدوحه . وطائرا من عتاق الطير يسكن ماعلا وارتفع ولا ينزل الا فوق شاهقة وقت الظلام ولولا الليل ما نزل وبعد ان تتكاثر هموم الصراع ، ويشتد هاجس الاحزان ، وترتفع اصوات القوة وهي تتحول في ابياته الى قدرة خارقة .. هنا تتبادر الى ذهن الشاعر صورة الانتقالة اللفظية التي عودتنا قصائد الشعراء على استعمالها في بناء القصيدة وهم يستذكرون الربع والديار ويسكبون الدموع والعبرات... انه الهم الذي يدعو الشاعر الى تجاوزه ولابد ان يكون تسريبه عن طريق الناقة الصلبة القوية التي لا تتشكى ولا تتضجر . لتكون اقدر على المقاومة واطول في المطاولة واصبر على متاعب الرحلة الشاقة . وفي هذا المقام المنبسط تترأى له تقليدا او عيانا صورة القطاة المنسوبة الى موضع كثير الحجارة اتخذت من الارض المستوية في غلظ مسكنا لها فوضعت فيه بيضها ، اذا اصابه البلل نفض جانبيه . واذا اطمأن الى موضع غادره الى موضع اخر ، واذا لبس شعرة جديدة سقطت شعرة قديمة يمتلك حريته وارادته ، ويصون نفسه من التبذل .. هنا يجد المدخل صالحا للممدوح وهي مقدمة قد تبدو فيها جدة ، لاننا نتعود على مثلها في مديح العصر ولم نجد تسلسل موضوعها في المقدمات التقليدية التي عرفها .. وهي خصيصة اخرى من خصائص الشاعر الذي ظل الجانب البدوي التقليدي يلح عليه في كثير من تقاليده ويفرض عليها وجها من الالتزام وفاء لتوجهه الذي تتوفر فيه صفات المجد والكرم والخير والكمال اليه يسعى المبتغون ويهرع المستغيثون وفي كنفه تطلب النجاة ويأمن المذعور(٣١)

وقال عنها ابو عمرو انها خيار قصائده وهي قصيدة عزيزة وقف عند بعض ابياتها البلاغيون وحسده عليها فحول الشعراء .

---

(٣١) تنظر القصيدة الرابعة .

ولم يسبق اليه في بعض صورها ولا يعرف لا حد مثل قوله في بعض ابياتها ، وقيل غير هذا في الحديث عنها او الاقتباس منها او عند الاستشهاد ببعض ابياتها . وهي من اكثر القصائد توزعا في مواضع الاستشهاد ولم يقتصر الاستشهاد بهـا على علم من علوم العربية وانمـا تجاوزها الى معظم علوم العربية من لغة وادب وبلاغة ونقد وتفسير ونحو وبلدان واختيارات .

والقصيدة فيها نفس المقدمات الطللية معنى وتراكيب وصور فالديار تعرف توهماً فتعاد زيارتها وقد شمل البلى آثارها ولم يبق فيها غير الأثافي التي اصطلت بالنار الحمراء ، وقد عريت من القدور التي ظلت تحملها امادا ، فاستلب الزمان رمادها ، واوشكت ان تزول رسوم حياضها ، وكأنها تنكرت لما وقع عليها من تغير ..... ان الابيات الخمسة التي قدم بها الشاعر كانت بداية الدخول الى الحديث المطلوب عن الخريدة الحبيبة ، والظبية البكر الفريدة التي يرتقي ومعها شادنها وهي تسوق سوقا رقيقا وقد صعدت به موضعا صعب المرتقى وبعد ابيات يعود الى (سعاد) التي بانت واخلفت الميعاد وتباعدت لتمنع الزاد . ولابد ان يدفعه هذا الحديث الى النزوع للوطن والحديث عنه بعد ان اصابته الشدة والتعب ولازمه الحنين والفراق ويقترن حديثه هنا بالفروسية التي تضع المرأة جانبا وغيرها تصبح وسادة ، يسرى يده وسادة لها وتضع الجانب الثاني من فروسيته لمصاحبة الجيش العرمرم فارسا يشهد كر الخيل وطرادها .... وقد يسر له هـذا التسلسل الحديث عن نفسه التي اصابت من المعيشة لذتها ، ولقيت من شدة الامور صعابها فستر عيب معيشته بتكرم واتى في سعة النعيم قصدها . ويتخذ الشاعر من حديث الانواء بداية للحديث عن الممدوح للعلاقة التي تشد بين العطاء وجود المطر والغيث وما يتبعه من خير . كما يتخذ من الفعل (نزل) بداية ويجانس بين الغيث والاغاثة وهو ما يعتقده بعد ان القت البرية كلها امورها اليه وسلمته مقادها ، وانها ارادة الله التي تولي الخليفة امر هذه الامة لتأخذ بيدها الى الصلاح والرشاد فعمر ارض المسلمين ونفى عنها من يريد فسادها .. ونزلت في ارض الاعداء مصائبا

فنصره الله وأعزّه بالظفر الذي لم ينل مثله احد من الخلفاء من قبل وان انتساب الوليد الى قريش يكفيها سيادة لما عرف به من سماحة ، ويبقى الشاعر يشيد بمأثر الخليفة الاموي الذي اخذ للحرب اهبتها ..

ولم يغرب عن بال الشاعر قدرة الوليد الحربية وما خطط له في مجال التحرير والفتح وانما كانت هذه الاحاديث تأتي في القصيدة (تأتيه اسلاب الاعزة عنوة) (يجمع للحروب عتادها) و (اذا رأى نار العدو تضرمت) و (بعرمرم يئـــد الروابي) و (اطفأت نيران العـــدو) ولم ينس اولئك الذين اتبعوا الهدى فكانوا من الخليفة لانهم كانوا ينظرون الى الامور ببصيرة وهدى . ولكن الحسّاد الذين اشار اليهم اصيبوا بحر شرار الحرب التي الهبت قلوبهم (٣٢)

وينحو فيها منحى قصائده الاخرى في المديح من وقوف على طلل واهتياج الشوق . ولكنه يطيل من اوصاف المرأة في هذه القصيدة ، وترق لغتها ، وتدق اوصافها ويصل في الحديث عنها ، وتأخذ صورة الحدوج لونا زاهيا والكواعب وجها بكرا وبعد الاستفاضة في اوصاف الناقة القوية التي اذهب لحمها السفر ، وهي تقطع المسافات الطويلة وتتجاوز الآكام في الهاجرة (وهنا تتكاثر الاوصاف التقليدية التي تقال في مدح الناقة السريعة والقوية) وفي هذه اللوحة تبرز قدرة الشاعر في حديثه عن الناقة وفق الصيغة المعروفة والتزامه بما سلكه القدامى في هذا المسلك ... وبعد ستة عشر بيتا من الوصف ينتقل الحديث عن حمار الوحش الذي تبع الاتان وهي الصورة التي ظلت في القاموس البلاغي صورة رائعة وقف عندها العسكري في ديوان المعاني (٣٣) فقال وقد احسن عدي بن الرقاع في وصف ثورين وما يثيران

---

(٣٢) تنظر القصيدة الخامسة .

(٣٣) العسكرى ـ ديوان المعاني ١٣١/٢ .

في عدوهما من الغبار . . ثم قال : ولا اعرف في صفة الغبار احسن ولا اتم من هذا . ويكاد يجمع البلاغيون والنقاد على اجادته وبراعته (٣٤) (ينظر المرزباني – ٢٥٣ والسمط ١ – ١٣٩ وابن الشجري – ٩٢٥ والخزانة ٣–٢٣٧ ومجموعة المعاني – ٢٠٣) ويستكمل ابعاد الصورة بما يضاف اليها من لواحق وما تلون به من اشكال تعود الشعراء على الاتيان بها وهم يتحدثون عن الحمار واتانه . ليستقر ليلا عند ماء عين وعلا فيه نقيق الضفادع وتختم القصيدة التي لم نجد فيها بيتا للمديح . ولعل القسم الخاص بالممدوح قد سقط وهو الارجح لان عنوان القصيدة وقال عدي يمدح الوليد بن عبد الملك بن مروان وان التمهيد الطويل والسياق الفني كان يوحي بالامتداد الشعري للحديث عن الممدوح وهي ظاهرة نجدها في بعض قصائده (٣٥) .

ويتخذ من الحديث عن الشيب بابا الذي علاه فغشي المفارق والقذالا للدخول وقد اقترن بالحلم بعد الجهل واللهو . والتذكر الذي اعاد له ايام لهوه ثم يعرج على الديار التي مضت عليها حجج ولكنه يقطع على نفسه بأن الحب بعدها غاب ولم يجد في غانيه دلالا . . . . ويحملها اللوم الذي لا يغني . . تمهيدا للدخول الى الفلاة التي يجار الركب فيها لتقطعها بفتية ونياق يقف على بعض اوصافها لتكون مهيئة للوصول الى الممدوح الذي وجدت من نداه خيرا لانه (فتى قريش) كرما وفضلا واحلاما تزن الجبال . وان قريشا تعلم ان فيها سيوفا حين يحتضر القتال . وتتولى خصائص المديح وصفاته ولم يتحرج الشاعر من طلب الجائزة (٣٦) .

---

(٣٤) ينزل الهامش .
(٣٥) تنظر القصيدة السادسة .
(٣٦) تنظر القصيدة السابعة .

ويفتتح مديحه لعمر بن الوليد بن عبد الملك بالحديث عن الفراق والوقوف على الديار الذي يطيل في وصف عفائها وامتناعها عن الاجابة وما اصاب آثافيها وما صنع المستوقدون بها وما تفعله النار وما احيط بها من نؤى وانتصب بها من اوتاد وبقي من بقايا . وما تثيره في نفسه من تطلع . وبعدها يدخل الى المديح الذي يباشر به الخليفة لما يذكره من اياد عليه ونعم يشكرها ومعروف يصفه . وان كل ارض يهبط بها لايراه فيها تتنكر له وتتجهم في وجهه . فهو الاغر الاروع الرزين من شيمته الليـن والكرم والقول الثبت والانتماء الاصيل والمكانة الرفيعة كانت لآبائهم وهم يتولون الامر فيحسنون اداءه ؛ ويتحملون مسؤوليتهم فلم يملوا ولم يسئموا ، صبر في الحرب ؛ يناضلون عن احسابهم عدول في القضاء،فزادهم زيهم خيرا وفضلهم بخير ما فضل السلطان والامم (٣٧) .

ويفتتح مديحه للوليد بن عبد الملك بالوقوف على الطلل المتقادم الذي يثير في نفسه من الاكتئاب والتذكر ولكنه يعود الى نفسه ليستفيق بعد هذه اللجاجة فالطلل اخرس صامت . . وكما اجمع النقاد والبلاغيون على تفرده ببعض الابيات المتقدمة فقد اجمعوا على تفرده في وصف المرأة وعندما تعلو ذكريات الشباب وتتسع دائرة الهجر يهرع الى الناقة التي يفرج فيها همه ويتخذها سريعة وهنا يتابع اوصافها لتصل به الى الوليد الذي وجد في كنفه ملجأ للحمد في مذاهب لا تنتهي ومكارم تعلو المكارم ومن الشرف في الذروة . اصالته معروفة يهب القينات ذوات الشعر الاسود والخيل والنعم والنجائب والحلائب من النوق والحوافل والروائم . وهي صور تذكرنا بصور النابغة التي كان يقدم بها لمديح النعمان .

يمدح عمر بن عبد العزيز ويفتتحها بالوقوف على الطلل الذي يمنحه الاوصاف التقليدية فيتوهمها بعد حول وقد خلت من اهلها (٣٨) .

(٣٧) تنظر القصيدة الثامنة .
(٣٨) تنظر القصيدة التاسعة .

ويتجلى في قصيدته التي فقد اولها وآخرها معرفته وتضمنه لبعض القصص القرآني فقد جاء على قصة نوح وداود وثمود واشار تفصيلاً الى قصة السفينة والطوفان وانتهى الى أن الانسان غير خالد ..

ولابد لنا ونحن ننشر ديوان شعر عدي بن الرقاع ان نذكر بالاعتزاز محاولة الاستاذ الجليل المرحوم خليل مردم لجمع شعر الشاعر بعد ان آلمه ضياع الديوان على الرغم من ورود بعض الاشارات . وقد استطاع ان يقدم باقة من شعره بعد ان جمعها من بطون كتب الادب واللغة والتاريخ والتراجم وكتب البلدان ، وهي مأثرة جليلة من مآثر العالم الجليل الى جانب مآثره الاخرى في جمع شعر الشعراء الشاميين ، وقد اضطره حبه الى ان يجمع الابيات المفرقة من الامكنة المتعددة ليضم بعضها الى بعض ، وقد يجد ابياتا من بحر واحد وقافية واحدة مبعثرة على سبيل الاستشهاد في كتب اللغة وكتب البلدان فيجتهد في ترتيبها ويجعلها قطعة واحدة متتالية .. وعلى الرغم من اعتزازنا بهذا الاهتمام والحرص على تقديم النصوص الا اننا نعتقد بانها طريقة خطيرة لانها تفقد النص ترتيبه وتقتل فيه وحدته التي ارادها الشاعر .

ويقف الاستاذ عبدالعزيز الميمني رحمه الله في كتاب الطرائف الادبية على ثلاث قصائد لعدي بن الرقاع ويشير الى مصدرها فيقول انها من المجموعة الموصوفة في مقدمة شعر حميد بن ثور وعند مراجعتنا لهذا المجموع وجدنا قول الميمني انه كانت توجد عند المرحوم احمد زكي مجموعة عشر قصائد وهي نسخة عتيقة عنوانها (منتخبات من كتاب المنتخب في محاسن اشعار العرب) ثبت عليها بخط حديث انها للثعالبي بظنٍّ باعد فيه الصواب صاحبه وربما تكون لابن السكيت والله اعلم لم اجتلها ولا ادري هل بقيت الى الان في خزانته ام لا غير ان المرحوم احمد تيمور كان قد نشر منها دالية ابن الرقاع في مجلة الآثار (السنة الثانية ص ٤٤٤) ثم يقول :

وبيدي الآن نسخة نقلها محمد بن محمد الباجوري سنة ١٣٢٨ لاحمد تيمور فصحف وحرف . وفي الهامش حاشية تذكر القصائد الثلاث (الطلا) و (اعتادها) و (سواها) ، وهي المذكورة في الطرائف وعند وقوفنا على القسم المتبقي من الديوان وجدنا هذه القصائد ولكننا وجدنا اختلافا ظاهرا في اللامية تمثل في .

١ — ان عدد ابيات اللامية في الطرائف هو ثمانية وعشرون بيتا في حين جاءت في قطعة الديوان واحداً وثلاثين بيتا مع اختلاف .

٢ — تلتقي القصيدتان في تسعة عشر بيتا وتختلف في الابيات الباقية .

٣ — هناك اثنا عشر بيتا في الطرائف غير موجودة في قطعة الديوان وعشرة ابيات في قطعة الديوان غير مذكورة في نسخة الطرائف .

٤ — الابيات في قطعة الديوان مشروحة تفصيلا في حين تشرح بعض الابيات في نسخة الطرائف .

٥ — تلتقي بعض الشروح نصا مع زيادة في شرح قطعة الديوان ويبدو ان الشرح المثبت في الطرائف قد اقتصر على بعض المفردات وهذا يعني ان الشرح اعتمد الديوان وقد حاولنا تلفيق القصيدتين منتفعين من الاشارات الواردة في النصين مع مراعاة البناء التقليدي للقصيدة والمعتمدة في بقية قصائد الديوان وطريقة الشاعر .

٦ — وعند مقارنتنا للقصيدتين المنشورتين في الطرائف وجدنا الاختلاف يتكرر الا ان فروق الابيات في الزيادة كانت اقل وان الاستاذ الميمني قد اجتهد في اضافة بعض الابيات التي عثر عليها في مواقع تخالف مواقفها في نص الديوان .

ويتضح لنا من دراسة القصائد الثلاث بعد معارضتها على القصائد الموجودة في الديوان انها جاءت موافقة لتسلسلها في الديوان وان شروحها مأخوذة من شروح الديوان بعد اختزالها واقتصارها على بعض المفردات وانها نقلت عن هذه النسخة او نسخة اخرى من الديوان . وان اوهاما من عيوب التحريف والتصحيف قد تسربت الى النسخة سيقف عليها القارىء .

مطالع قصائد الديوان وعدد ابيات كلّ قصيدة

١ ـ لمن الـدار كعنوان الكتـاب
هاجت الشوق وعيّت بالجـواب
وتقع في أربعة وعشرين بيتاً .

٢ ـ لمن الدار مثل خـط الكتـاب
بالمـراقيـد أو بوكـر العقـاب
وتقع في أربعة واربعين بيتاً .

٣ ـ شطت بجـارتك النـوى فتحمـل
ونأتك بعـد مـودّة وتـدلّـل
وتقع في ستين بيتاً .

٤ ـ أتعرف الدار أم لاتعرف الطللا
بلى فهيجت الأحـزان والوجـلا
وتقع في واحد وثلاثين بيتاً .

٥ ـ عرف الديار توهمـاً فاعتادها
من بعـد ماشمل البلى ابلادهـا
وتقع في اثنين واربعين بيتاً .

٦ ـ ما هاج شوقك من مغاني دمنة
ومنـازل شعف الفؤاد بلاهـا
وتقع في ثمانية واربعين بيتاً .

٧ ـ علاني الشيب واشتعل اشتعـالا
وقـد غشي المفـارق والقـذالا
وتقع في ثلاثة وثلاثين بيتاً .

٨ – بانت سعاد وليس الود ينصرم
وداخل الهم مالم تمضه سقم
وتقع في ثلاثة وثلاثين بيتاً .

٩ – الم على طلل عفا متقادم
بين الذويب وبين غيب الناعم
وتقع في سبعة وثلاثين بيتاً .

١٠ – لمن رسم دار كالكتاب المنمنم
بمنعرج الوادي فويق المهزم
وتقع في اثنين وخمسين بيتاً .

١١ – منع النوم طارقات الهموم
وأسىً وادكار خطب قديم
وتقع في ستة وثلاثين بيتاً .

١٢ – جزعت ان شتّ صرف الحي فانفرقوا
وأجمعوا البين بالرهن الذي علقوا
وتقع في ثمانية وعشرين بيتاً .

١٣ – أرواحٌ أم بكرة فاغتداء
بديون لم تقضهن الشفاء
وتقع في تسعة وستين بيتاً .

١٤ – لمن المنازل أقفرت بقباء
لو شئت هيجت الغداة بكائي
وتقع في تسعة وعشرين بيتاً .

١٥ – نزع الفؤاد عن البطالة والصبى
وقضى لبانته فأقصر وانتهى
وتقع في سبعة عشر بيتاً .

١٦ – بانت حسينة وائتمت بمن بانا
واستحدثت لك بعد الوصل هجرانا
وتقع في واحد وخمسين بيتاً .

١٧ – حدثت أن رويعي الإبل يشتمني
والله يصرف أقواماً عن الرشد
وتقع في ستة أبيات .

١٨ – ليت شعري هل تخبرني الديار
بيقين عن أهلها أين ساروا
وتقع في اثنين وخمسين بيتاً .

١٩ – غدا ولم يقض من سلومة الوطرا
وما تلبث اذ ولى وما انتظرا
وتقع في خمسة وثلاثين بيتاً .

٢٠ – عما يا ابنتي قيس صباحا ومظلما
وان كنتما أجمعتما البين فأسلما
وتقع في خمسة وأربعين بيتاً .

٢١ – أهمّ سرى أم عاد للعين عائر
أم انتابنا من آخر الليل زائر
وتقع في ستة واربعين بيتاً .

٢٢ – أطربت أم رفعت لعينك غدوة
بين المكيمن والرجيع حمول
وتقع في خمسين بيتاً .

٢٣ – نأتك حسينة فيمن نأى
وكانت نواها بها تسعف
وتقع في واحد واربعين بيتاً .

٢٤ ـ طال الكرى وألم الهم فاكتنعا
وما تذكر من قد فات وانقطعا
وتقع في واحد وخمسين بيتاً .

٢٥ ـ غشيت بعفرى أو برجلتها ربعا
رماداً وأحجاراً بقين بها سفعا
وتقع في خمسة وعشرين بيتاً .

٢٦ ـ أنعرف بالصحراء شرقي شابك
منازل أغراها الأنيس وملعبا
وتقع في أربعين بيتاً .

٢٧ ـ احبّ ذا لقرينة لم تصحب
وحبل اللبانة لم يقضب
وتقع في سبعة عشر بيتاً :

٢٨ ـ إن الخليط أجد البين فانقذفوا
وامتعوك بشوق أية صرفوا
وتقع في اثنين وثلاثين بيتاً .

٢٩ ـ ألاربّ لهو آنس ولذاذة
من العيش يغبيه الحياء المستر
وتقع في واحد وعشرين بيتاً .